شعريـة الفضاء الانـعزالي وأثره النفسي في روايّة الأيام

The poetics of the isolationist space and its psychological impact on Al-Ayyam's novel

أ. ناصر بعداش♦

تاريخ الاستلام: 30-09-2020 تاريخ القبـول:03-05-2021

ملخّص: يؤثر الانعزال على الأفراد وعلى نفسياتهم تأثيرا كبيرا، مما يؤدي إلى الانطوائية وحمل الكره للآخرين، وينتقل إلى شخصية الفرد المنعزل فيذيقها عذابات كبيرة تبقى مع الزمن، ومن هنا يصبح الفضاء خاضعا لطبيعة الفرد في حد ذاته، وقد ينقسم إلى قسمين؛ أحدها فضاء أليف يرتاح فيه صاحبه، وفضاء معادي ينفر منه الإنسان كلما صادفه، ولعل هذه الأسباب هي الدافع إلى الانعزالية والفرار من فضاءات معادية إلى أخرى أرحب، ويأتي الهدف من هذه الدراسة هو الولوج إلى شخصية طه حسين من خلال روايته الأيام، وبحث أثر تلك الفضاءات الانعزالية التي كان يعيشها الروائي، وانعكاساتها على نفسيته، مع التطرق إلى شعريتها وما توحي إليه من دلالات تخص هذه الشخصية. ولعل المنهج المناسب لمثل هذه الدراسات هو المنهج البنيوي القادر على التعمق في بنيات المكان، مع الاتكاء على المنهج التحليلي الوصفي الذي يتطرق إلى تحليل بعض المظاهر التي عاناها البطل، ومن ثم وصفها وصفا دقيقا بما يتناسب مع كتابات الروائي.

ومن النتائج التي سنتوصل إليها؛ هي انقسام الفضاءت إلى أنواع، وكل نوع يترك أثره على ساكنه، ومن ثم أثر الفضاءات الانعزالية على شخصية البطل طه حسين ودورها في تكوين هذا الرجل في المستقبل.

كلمات مفتاحيّة: الفضاء؛ الشعرية؛ الأليف؛ الانعزال؛ الرواية.

♦جامعة ميلة الجزائر، البريد الاكتروني: n.baadache@centre-univ-mila.dz
(المؤلّف المرسل)

Abstract: Isolation greatly affects individuals and their psyche, which leads to introverted ness and carrying hatred for others. It is transferred to the isolated individual's personality, and it is tasted by great torments that remain with time. Hence, space becomes subject to the nature of the individual itself, and may be divided into two parts; One of them is a cozy space in which its owner relaxes, and a hostile space that a person is alienated from whenever he encounters, and perhaps these reasons are the motive to isolationism and fleeing from hostile spaces to the wider one, The aim of this study is to reach Taha Hussein's personality through his novel Al-Ayyam, and to study the effect of those isolationist spaces that the novelist was living in, and its repercussions on his psyche, while touching on his poetry and the indications that this characteristic suggests to him.

Perhaps the appropriate approach to such studies is the structural approach that is able to delve deeper into the structures of the place, while relying on the descriptive analytical approach that deals with analyzing some of the aspects experienced by the hero, and then he described it accurately in proportion to the writings of the novelist.

Among our results, Is the division of spaces into types, and each type leaves its impact on its inhabitants, and then the effect of isolation spaces on the personality of the hero Taha Hussein, and its role in forming this man in the future.

Keywords: Space; poetry; Aleve; Isolation; Novel;

المقدّمة: يعتبر الإنسان كائنا اجتماعيا بالضرورة، يسعى دائما أن يكون مع الجماعة مشاركا أفراحها وأتراحها، ولكن في بعض الأحيان يخرج عن هذه القاعدة بعض الأفراد، خروجا بالطواعية أو الإكراه، ففي الأول يكون الإنسان مختارا لأفعاله وأسباب الابتعاد، كالانزعاج من تصرفات الآخرين التي تجبر الفرد على الابتعاد عن الناس، وقد يكون بالإكراه كأن تكون في الإنسان بعض العاهات الجسدية التي تؤدي بصاحبها إلى الابتعاد عن الجماعة، والانطواء على النفس في أمكنة وفضاءات عديدة، وقد تلحق هذا النموذج عذابات كثيرة تؤثر تأثيرا كبيرا على النفس البشرية إما إيجابا أو سلبا، وفي دراستنا هذه سنحاول تتبع مسارات حياة الكاتب طه حسين من

خلال روايته الأيام، والولوج إلى نفسيته ومعرفة تأثير الانعزال عليها، والوقوف على الأسباب المؤدية إلى ذلك، وقد تتعدد إشكالية البحث لتكون كالآتي:

- ما هي الفضاءات الانعزالية؟ وكيف تَتَكَوَن وتتحكم في الإنسان؟
- هل أثرت هذه الفضاءات على شخصية طه حسين؟ وكيف كان تأثيرها؟
- ما هي شعرية الفضاء الانعزالي في الرواية؟
- كيف يصبح الفضاء الأليف موحشا في الرواية؟

أما عن فرضيات البحث، ونظرا لجدة البحث وانعدام الدراسات حوله، فسنحاول تتبع أقوال الروائي قولا قولا لنصل إلى تلك التأثيرات الخارجية التي فرضتها طبيعة المكان المعادي الذي طبع شخصية البطل، ومن ثم الابتعاد عن العالم الاجتماعي لتكوين شخصية جديدة بمعزل عن الناس، مع البحث في شعرية تلك الأمكنة والفضاءت التي دفعت بالكاتب إلى الانعزال.

-1**الفـضاء و الانــعزالية:** يبدأ الإنسان وحيدا في هذه الحياة، ثم ما يفتأ يكبر عبر المراحل التدريجية إلى أن يُكَوّنُ أسرة، وما يزال على هذه الحال حتى يُكَوِن جماعات تجمعها أواصر القرابة وبتطور الزمن تكبر لتصير مجتمعا تحكمه قوانين وأعراف يسطرها الإنسان لأجل غاية سامية، وهي استمرارية الحياة البشرية، ومن هنا يتبن أن كل خروج عن الجماعة يعد بمثابة انعزال ترفضه الطبيعة البشرية، لأن معاناة الإنسان الأولى؛ وتجربته في الحياة لا تقبل مثل هذه التصرفات القديمة، فالشخص بطبيعة الحال يكمل الأخر والفرد لا تكتمل حياته إلا بمساندة ودعم الآخرين، من هنا تنشأ الروابط الحميمية التي يتماسك بها المجتمع، وبها تتذلل الصعاب، ويتمكن الإنسان من بسط سيطرته على هذه الطبيعة القاسية، ويتمكن مع الآخرين تشاركيا لأجل توفير أسباب العيش، أو الضرب في فضاءات الطبيعة الواسعة، لأن "المكان جزء من البيئة وله دوره في تقاليد الناس ونظام السكن والعلاقات الاجتماعية والمناسبات، وطريقتهم في المأكل والمشرب والزينة، لتميز مجتمعا ما عن مجتمع آخر، وينعكس ذلك مع الأيام على تراثهم وآدابهم" (زعيتر، 2013)[1] ، وبالتالي نجد أواصر المحبة والصداقة تتجذر بين الناس، وتمتد الاحتياجات بينهم، حتى لا يمكن استغناء الواحد عن الآخر، وبهذا يصبح للفضاء

دور كبير في وعي الإنسان، لأنه رمز الاستمرارية ومَدِّ جسور التواصل، وعليه فقد عمل الإنسان منذ القديم على تشييد الأمكنة والفضاءات التي تمكنه من العيش وتذليل الصعاب أمامه ليحس بالأمن والأمان، ولكن قد تتحول مثل هذه الفضاءات إلى موطن للعزلة والوحشة، لأنه لا يوفر دواعي الأمن والاستقرار فكل الأحاسيس المرافقة للفضاء تنعكس إما سلبا وإما إيجابا على نفسية قاطنيها وتبث فيهم ذكرايات يكتب لها البقاء إن أمكن، ويكتب لها الفناء إن أرادت .

إن المتتبع لحركة السرد في رواية الأيام يجد انتشارا واسعا لفضاء العزلة والوحشة، حيث نجده يمتد من مراحل الطفولة الأولى، ويبقى في مسار أفقي تتابعي إلى مراحل متقدمة من حياة البطل، إلى أن يصل إلى سن تنتهي فيها مراحل حياته المريرة، فنجد البيت الذي هو مصدر الدفء والحمائية، له علاقة كبيرة بالبطل لأنه "من الواضح تماما إن البيت كيان مميز لدراسة ظاهرتية لقيم ألفة المكان من الداخل >> (باشلار، 1984، صفحة 35)[2]، لذا نجده يتحول مع البطل إلى فضاء الوحشة والعذاب، خاصة إذا كساه اللون الأسود المزدوج ، سواد الليل وعذاباته، وسواد الظلمة الكاسية للغرفة، <<وذلك لأن البيت يمدنا بصور متفرقة، وفي الوقت ذاته يمنحنا مجموعة متكاملة من الصور>> (باشلار، 1984، صفحة 35)[3]، وهنا تجتمع الصور المتفرقة على البطل الصغير، وتتكاثف إلى أن تصير مجموعة كاملة من الأخيلة، ثم تتسرب إلى خياله البكر، وتصبح على شكل أشخاص تسد عليه فضاء الألفة وتحوله إلى فَرَقٍ دائم، تنعدم فيه مصادر الأمن والأمان، <<وكان يخاف أشد الخوف أشخاصا يَتَمَثَّلُهَا قد وقفت على باب الحجرة فسدته سدا وأخذت تأتي بحركات مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوفة في حلقات الذكر، وكان يعتقد أن ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة، إلا أن يلتف في لحافه من الرأس إلى القدم دون أن يدع بينه و بين الهواء منفذا أو ثغرة ...>> (حسين 1992)[4]، انظر كيف يتحول الفضاء الأليف المتمثل في البيت إلى مكان موحش مخيف، تتوفر فيه أسباب العزلة والوحدة، فيرتبط خيال البطل فيه بتوهمات تسيطر على ذهنه، وتجتمع له المتناقضات، فكيف استراح لهذا البيت لأول مرة ؟ وكيف له أن يتوهم في الأخير أنه غير آمن، ولكن <<لحل هذه المسألة لا يكفي أن نعتبر

البيت " شيئا " بإمكاننا أن نصدر أحكامنا عليه، ونكون أحلام اليقظة حوله>> (باشلار، 1984، صفحة 35)[5]، هنا تجتمع أحلام اليقظة حول صاحبنا، وتلتف حول هذا الفضاء محولة إياه إلى فضاء يمتلأ بالخوف والفرق، فلا يشعر فيه الفرد بأدنى شيء من الراحة والنوم، ولا يمتلك نفسه إلا وهو يتدثر في لحافه بشكل عجيب إلى أن تنسد منافذ الهواء دونه، وهو بعمله هذا يحاول الهروب من فضاء البيت، إلى ابتداع فضاء آخر يشعره بنوع من الأمن، وهو يعتقد بعقله الصغير أن اللحاف بديل جيد عن البيت الذي تنعدم فيه الجدران والقوائم، فهل يغنيه هذا الفضاء الجديد عما هو عليه ؟ .

-2**البيت وأثر الوحدة على الفرد:** إننا إذا انطلقنا من منطلقات تتبع المعاني الخفية للبيوت والمساكن، وتتبع الأحاسيس التي ترافقها وتدل عليها، فإنه يجب بدءًا ذي بدء فهم الظواهر المحيطة بها، لأن عملية الفهم تقودنا إلى الوصول إلى نتائج مرضية لذا نجد أن تعارض المناهج << وتَبَايُنِ منطلقاتها في تفسير الظواهر الفردية والاجتماعية، إلى اختلاف عميق في فهم هذه الظواهر ذاتها، وبالتالي بدأنا نقف على إشكالية "الفهم" فهل نصل إلى فهم الظواهر بناءً على شروط سيكولوجية ؟ أم أخرى سوسيولوجية ؟>> (شميعة، 2013)[6]، هنا تَكْمُنُ المشكلة، فعند تتبعنا للظواهر المحيطة بالبطل في رواية الأيام، وجدنا تعارضات كثيرة، فالبيت عند البطل كان على عكس ما كانت عليه البيوت المعهودة، وهنا تختلف أنواع البيوت التي نراها وأن نعايشها نحن، <<أما بالنسبة للظاهراتي فسوف نصرف إلى البحث عن البذرة الجوهرية والمؤكدة والمباشرة لما يوفره هذا النوع أو ذاك، هناءة. إن أول مهمة للظاهراتي في كل بيت أن يجد القوقعة الأصلية .>> (باشلار، 1984، صفحة 36)[7]، فهل وجد طه حسين القوقعة الأصلية في هذا النوع من الفضاء ؟ وهل وَفَّرَ له الهناءة المطلوبة ؟

إننا من خلال ظواهر الحياة المعيشة للبطل؛ نجد أنه في كل مرة يصطدم بنكسات مصدرها البيت الذي يحل فيه، حتى ولو توفرت فيه شروط الانفتاحية، إلا إنه يبقى مصدر اليأس وفقدان الأمل، << ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد ترك أخوه باب الغرفة مفتوحا إلى أقصى غايته، وهذه أصوات القوم تبلغه. وهذه ضحكاتهم تصل

إليه، وهذه دقات مصمتة تنتهي إليه فتؤذنه بأن صاحب الشاي يحطم الخشب ليوقد النار، وكل هذه الأصوات التي تنتهي إليه تثير في نفسه من الرغبة والرهبة ومن الأمل واليأس ما يعنيه و يضنيه، ويملأ قلبه بؤسا وحزنا>> (حسين، 1992 صفحة 98)[8]، فإذا فهمنا هذه الظاهرة نستطيع تتبع مسار الحزن والألم الذي تخلفه الغرفة في نفسية البطل، على الرغم من ترك الباب مفتوحا، إلا أن تسرب الأصوات إلى أذن الفتى كان يزعجه، والسبب في ذلك عدم القدرة على الخروج منها، بسبب فقدان البصر، لذلك نجد البيت يتحول بما فيه من حماية إلى مصدر لتحطم النفسية وما يتبعها من آلام، إنها ظلال دقيقة لا يحس بها إلا من عايشها، لذلك فإنه: << بالنسبة للظاهراتي فإن هذه الظلال الدقيقة يتوجب اعتبارها التخطيط الأول لظاهرة نفسية ، لأنها – الظلال الدقيقة – ليست زخرفا مقحما وسطحيا. وعلينا، لهذا أن نفسر الكيفية التي نسكن فيها بيتا – مكاننا ذا الأهمية لحيوية – وأن يتم ذلك في توافق مع جدل الحياة، وأن ينفذ هذا التفسير إلى شرح الوسيلة التي نرسي بها جذورنا يوما بعد يوم، في " زاوية من هذا العالم>> (باشلار، 1984، صفحة 36)[9]، من هنا يتضح أن فهم الظاهرة يقود إلى فهم الإحساس العميق الذي تخلفه الصور حول البيوت، إننا إذا فهمنا جدل اللعبة بين الأنا وما ليس أنا، هناك يتم معرفة مكان الراحة قبل معرفة الكون، << وهم يعرفون الكون قبل أن يعرفوا البيت، يعرفون الأفق البعيد قبل معرفة مكان راحتهم. في حين أننا لو درسنا بدايات الصور ظاهرتيا فإنها سوف تعطينا الدليل الملموس لقيم المكان المسكون، لا الأنا الذي يحمي الأنا >> (باشلار، 1984، صفحة 36)[10]، لذلك لو عرف أخو الفتى ما يعرفه البطل، ولو عرف أصحابه ذلك لما حولوا مكان الراحة إلى وحشة دائمة، وما تركوا الباب عليه مفتوحا لتصل أصواتهم إليه، ولو عرفوا مكان الراحة لما حولوه إلى جحيم مطبق، فلا يحس بالألم إلا من لامسه وسبح في بحره.

تنشأ هنا فكرة الفضاءات المعاشة والتي يعمرها الناس، فهل هي البيوت أم لا ؟ إن الخيال هنا هو المتحكم في هذه العملية، و<< ...سوف نرى أن الخيال يعمل في هذا الاتجاه أينما لقي الإنسان مكانا يحمل أقل صفات المأوى: سوف نرى الخيال يَبني " جدرانا " من ظلال دقيقة، مريحا نفسه بوهم الحماية – أو، على العكس. نراه

يرتعش خلف جدران سميكة متشككا بفائدة أقوى التحصينات. باختصار، وطبقا لجدل لا نهائي فإن ساكن البيت يضفي عليه حدودا. إنه يعيش تجربة البيت بكل واقعيتها وحقيقتها خلال الأفكار والأحلام ....>> (باشلار، 1984، صفحة 36)[11]، ومن ثم؛ فرغم وجود السكان القاطنين بجنب البطل، ووجود رفيق قريب منه دائما، إلا أن كل ذلك لم يوفر له أدنى أسباب الراحة، ولم يحقق للبيت معنى الحماية والدفء، لذلك نجد البطل يخشى الاصطدام بالناس المجاورين له، بدل التواصل معهم، على الرغم من تواجدهم في البيت الواحد، بل؛ ويخشى حتى الاقتراب من أخيه الأكبر، وهنا. – ورغم توفر أسباب الحماية، ووجود جدران حصينة–، فإن هذا البيت أضفى عليه اضطرابا شديدا، وحسرات لاذعة؛ ذكرته ببيته الأول في القرية، وحنينه إليه رغم بساطته، << وكان كل شيء أهون على الصبي من أن يفجأه أخوه، وهو يسعى مضطربا حائرا فيسأله: ما خطبك؟ وما الذي تريد؟ فكان إذن يرى الخير في أن يبقى في مكانه و يؤثر العافية، ويردد في نفسه تلك الحسرات اللاذعة التي كان يجدها وحسرات أخرى لم تكن أقل منها لذعا وإيلاما، حسرات الحنين إلى منزله ذلك، في قريته من قرى الريف >> (حسين، 1992، صفحة 99)[12]، ومن ثم يتبين أن الموطن الأول الذي ولد فيه الإنسان، هو الحميمية الحقة، وهو البدائية التي لا يمكن بحال من الأحوال نسيانها، على كثرة السنين وتباعد الأزمنة، وها هو صاحبنا ؛ رغم رحيله إلى المدينة التي كان يحبها، واستبدال الريف والفقر، بالرفاهية المزعومة، إلا أن كل هذا لم يحقق له معنى الفضاء الأليف وظل صاحبنا يتذكر الماضي الأليف، << .... لأن ماضينا كاملا يأتي ليسكن البيت الجديد. إن المثل القديم الذي يقول " إننا نجلب أوجارنا معنا " يحتمل تنويعات عديدة . إن حلم اليقظة يتعمق إلى حد أن منطقة من التاريخ البعيد جدا تنفتح أمام الحالم بالبيت، منطقة تتجاوز أقدم ذكريات الإنسانية. إن البيت، مثله مثل الماء والنار، سوف يتيح لي في هذا الكتاب استرجاع لمحات من أحلام يقظة تضيئ ذلك الدمج بين القديم جدا وبين المستعاد من الذكريات. وهذه المنطقة التي تنفتح على تاريخ سحيق يرتبط فيها الخيال بالذاكرة، كل منهما يعمق الآخر.>> (باشلار، 1984، صفحة 37)[13]، لذلك فكل الذكريات القديمة، والضاربة في العمق، تُنتشل هنا. دفعة واحدة ، بمجرد ملامستها تخوم نفسية

البطل المضطربة، إنها تتدفق جملة رغم تباعد الأزمنة ، واختلاف الأمكنة، وتنوع الشخصيات، هذه هي حياة الصبي إذن، في بيت كان من المحتمل أن يوفر له أسباب العيش الهادئ، لكننا نرى في هذا المقطع عكس ذلك، إننا نرى أن كل شيء يقف حائلا دون وصول السعادة إليه، تضاف إلى كل هذه الحسرات، كالظلمة المطبقة التي أصبح بفعل عقله الناشئ المضطرب يراها رأي العين رغم فقدان البصر.

إن البيت كائن يحتمي به الإنسان من كل عوارض الحياة، وهو الذي يوقظ في النفس أحاسيس كثيرة، منها الجميل، ومنها السيئ، ولكن يبقى البيت، حامل لواء الحاضر والماضي، وحامل لواء الذكريات والأحلام، وهو عامل بث الحركية في الزمن ومن دونه يفقد الإنسان هويته، ومنه <<... فإن البيت واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الإنسانية. ومبدأ هذا الدمج وأساسه هما أحلام اليقظة. ويمنح الماضي والحاضر والمستقبل البيت ديناميات مختلفة. كثيرا ما تتداخل، أو تتعارض، وفي أحيان تنشط بعضها بعضا. في حياة الإنسان ينحي البيت عوامل المفاجأة ويخلق استمرارية. ولهذا؛ فبدون البيت يصبح الإنسان كائنا مفتتا، إنه – البيت – يحفظه عبر عواصف السماء وأهوال الأرض >> (باشلار،1984 صفحة 38)[14]، وما دام ذلك كذلك، وكانت الديناميات تتداخل، أو تتعارض، وكان وجود الإنسان من دون بيت كائن مفتت، فإن صاحبنا كان كذلك ، وحرم من دينامية البيت، بل وتعارضت الموجودات كلها مشكلة حزنا عميقا ينشط الذاكرة من حين إلى حين، إن صاحبنا تَعَوَّدَ في بيته الأكل منفردا، وحيدا، منعزلا، وما يفعل ذلك إلا لأن الخوف يَتَمَلّكُهُ من كل الأشخاص المحيطين به، حتى أهل الدار أنفسهم، لأنه يخشى أن لا تصل اللقمة إلى فمه جيدا، أو أنه لا يحسن استعمال الملعقة، أو لذكريات أليمة تنشط من حين لأخر ، تنغص عليه حياته الصافية، لذلك نجد أن علاقته بالغرفة كانت منذ الأزل، فهو يحب أن ينعزل فيها لكي لا يراه الآخرون، ولا يعرض نفسه لحماقات، فلولا الغرفة لكان كائنا مفتتا، مشتتا لا يُلم، وانعكاس ذلك امتد عبر الزمن اللاحق، وحتى في جَنَبَاتِ السفينة، فهو يعتزل الناس ويهرب من شرورهم إلى الغرفة، فلا يخالط أحدا، ولا يأكل أمام الناس، لأن عامل الذاكرة يحيطه علما بكل ما

مضى وانقضى، لكنه ينشط ذلك الأثر في نفسه من حين إلى آخر: << فقد لزم الفتى غرفته تلك منذ دخل السفينة إلى أن خرج منها . ولم يذهب إلى غرفة المائدة، وكيف يذهب إليها وهو لا يحسن الحركة في السفينة التي لا تستقر، ولا يعرف الجلوس إلى موائد الطعام. ولا يحسن استعمال تلك الأدوات التي يستعملها الناس حين يطعمون، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين>> (حسين، 1992، صفحة 259)[15]، نعم إنها وحدة ما بعدها وحدة، وسجن عميق لا يطاق، إنها مُجتمعات ومتفرقات تضافرت جهودها سعيا منها لتحطيم شخصية البطل والنيل من تطلعاته وأحلامه وانتصاراته، غير أن صاحبنا كان قويا كفاية، حيث مَكّنته شخصيته من التغلب على صعاب الحياة، وقهر صعوداتها وعقباتها، إلا أنه دائما كان بحاجة إلى مساعدة و مساندة من الآخرين، خاصة من أقرب الناس إليه وهو أخوه، غير أن هذه الغاية لم تتحقق، ولم يَحظَ بأي اهتمام، ولقد استمرت حياة الفتى على ما هي عليه من الانعزالية والتفرد، وانفتاح الذكريات على ماض أليم، كاد يعصف بحياته كلها فذكريات البيت والغرفة، وما لهما من حزن وألم، إلى أن فتح الله عليه بالزواج والارتباط بفتاة فرنسية أعانته على التغلب على نوائب الدهر، والاستقرار أخيرا في بيت الزوجية الذي لا بد منه، لأن شريكة الحياة، ليست كباقي الناس والمجتمع، وأن غرفته الآن ليست كباقي الغرف، إنها الآن توفر له أسباب العيش الهادئ ، بل وأصبح يحس بأن الحياة انطلقت من جديد ، بل و فهم أنها ذات قيمة جمالية، و أن الزواج يقنن الحياة ويرسلها جيدة محمية دافئة في البيت الجديد ، لأنه – البيت – << جسد وروح، وهو عالم الإنسان الأول "قب" أن يقذف بالإنسان في العالم " كما يدعي بعض الفلاسفة الميتافيزيقيين المتسرعين، فإنه يجد مكانه في مهد البيت. وأي ميتافيزيقيا دقيقة لا تستطيع إهمال هذه الحقيقة البسيطة لأنها قيمة هامة، نعود إليها دائما في أحلام يقظتنا، الوجود أصبح الآن قيمة. الحياة تبدأ بداية جيدة ، تبدأ مسيجة، محمية دافئة في صدر هذا البيت>> (باشلار، 1984، صفحة 37)[16] ومن هنا فإن حياة البطل بدأت متعثرة في كل مراحلها، منذ الصغر وحياة الطفولة، إلى الشباب ثم الارتباط ، الذي يعول عليه البطل كثيرا، لأنه يرى في نفسه أن رفيقا وأنيسا يحل معه هذا البيت، فسيتحول إلى بيت دافئ، مُسَيَجٌ بالحميمية، وهو يستقر

أخيرا في دار جديدة، تنطلق منها الحياة ، << وقد أوى الزوجان آخر الأمر إلى دارهما، وخدعا نفسيهما عما فيها، واطمأنا إلى ما لم يكن بد من الاطمئنان إليه>> (حسين، 1992، صفحة 321)[17]، وهكذا يخدع البطل نفسه و زوجته بحميمية البيت، ولكن ليس من بد أن ينصهرا في دار؛ بحثا عن أُلفتها عمرا كاملا، فكيف في الأخير لا يختار بيتا يعوضه عن كل ما فات، من أحزان وآلام ومكبوتات عنيفة وذكريات لا يَمْحِيهَا طول السنين، وتباعد الفضاءات والأمكنة، إن أماكن العزلة القديمة التي فرضت الوحدة القاتلة على البطل، تظل راسخة في ذهنه على الرغم من الارتباط، واتخاذ بيت جديد، وغياب الأماكن المأساوية واختفائها من حاضر البطل إلا أن الذكريات بقيت في ذهنه، فلا يستطيع الاطمئنان إليها أبدا، لذلك فإن <<كل أماكن عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها من الوحدة، التي استمتعنا ورغبنا فيها وتألفنا مع الوحدة فيها تظل راسخة في داخلنا، لأننا نرغب في أن تبقى كذلك. الإنسان يعلم غريزيا أن المكان المرتبط بوحدته مكان خلاق، يحدث هذا حتى حين تختفي هذه الأماكن من الحاضر، وحين نعلم أن المستقبل لن يعيدها إلينا >> (باشلار، 1984، صفحة 40)[18]، وبالتالي فالبطل يعلم علم اليقين أن فضاءات الوحدة، وأماكن العذاب، حتى وإن استقرت في عقله، وشيدت مباني وقصورا لا تنهد فهي في الأخير لن تُعَاد، ولن يتكرر مثيلها في المستقبل.

إن مثل هذا البحث يقودنا في أغلب الأحيان إلى استنتاج فضاءات جديدة ترتبط بكل ما هو متخيل، بل بكل ما له علاقة قوية بالذاكرة، خاصة إذا تعلق الأمر بمراحل الطفولة الأولى، لأن هذه المرحلة يكون فيها الطفل صفحة بيضاء، يكتب فيها الزمن كل حوادثه، بما فيها علاقتنا بالمكان الحميمي الذي نلجأ إليه كلما اشتدت نوائب الدهر، وضاق علينا الكون بما رحب، فالبيت هو الجسد والروح، وهو عالم الإنسان الأول، به نكتشف ذواتنا حين يحاصرنا المجتمع، وحين يتنكر الأهل والأصحاب لنا ولذواتنا.

-3الفضاء **ودلالة الانتماء:** إن المكان فضاء رحب ينشد فيه الإنسان ضالته، فضلا على كونه يحمل دلالات<<انتمائية ونفسية ووجدانية وجمالية، وعلى أرضه تنشأ القيم الإنسانية وهو محور النشاطات والأحداث التي تبدأ بالبيت مكان الألفة.

ويتبع ميدانها إلى المحيط الخارجي. كالفضاء الذي يضمه>> (زعيتر، 2013، صفحة 269)[19]، ولعل أول ممارسة للإنسان في هذا الوجود تبدأ بالبيت مهد الطفولة، ثم تتفرع منه تفريعات أخرى تُكتشف بمجرد الخروج من هذا البيت، إلى عالم أكثر اتساعا، ومحيطا أكثر رحابة، إلا أن فضاء البيت يبقى أكثر تعلقا بذاكرة الإنسان، فلا نستطيع بأي حال من الأحوال نسيان تلك الحميمية والألفة التي وفرها لنا البيت في مرحلة الطفولة، << وهكذا فإننا لا نعيش تجربة البيت يوما بيوم مثلما نعيش تسلسل قصة. خلال أحلام اليقظة تتداخل مختلف البيوت التي سكناها ونحتفظ بكنوز الأيام السالفة. وعندما نسكن بيتا جديدا، وتتوارد إلينا ذكريات البيوت التي عشنا فيها من قبل، فإننا ننتقل إلى أرض الطفولة غير المتحركة كالذكريات البالغة القدم. نحن نعيش تثبيتات السعادة ...>> (باشلار، 1984، صفحة 37)[20]، إنها الذكريات التي لا تنصهر أبدا، حتى إذا فارقنا بيتنا مهد الطفولة، وسكنا بيوتا أفضل من البيوت الأولى، إلا أنه يظل يملأ خيالتنا بما وفره لنا من ألفة، لذلك فالفضاء الذاكراتي <<هو الميدان الذي يمد الشاعر بمادة غزيرة ويستدعي الذكريات بما فيها من صور ماضية لسعادة مفتقدة ومواقف أصبحت ضمن الماضي الذي لا يعود، وهذا المكان يمتلك مثيرا لمشاعر الإنسان في حنينه إلى الديار وملاعب الصبا. ولعواطفه التي تفجر براكين الألم و الحسرة النابعة من الانفعال الصادق في إحساس الشاعر بغربته المكانية >> (زعيتر 2013، صفحة 269)[21]، وبتتبع مراحل السرد في رواية الأيام نجد طه حسين يحتفظ بذكريات البيت الأول، ويختزنها لوقت الحاجة، ونجده يعود إلى الخلف كلما صدمه موقف خارج الدار، أو ألمت به حادثة محزنة، فها هو الفتى رغم حداثة سنه، إلا أنه استطاع معرفة قوة الذاكرة، وعلاقتها بحوادث الطفولة، وعلم أن كل ذكرى جميلة، يبقى لها وجود على اختلاف الأزمنة، وتباعد الأمكنة، وإن كل واحدة تعكس على صاحبتها مرايا مشعة، سرعان ما تتلاشى وتضمحل، بل ويخرج من الذاكرة الإنسانية كأن لم تكن: <<ولكن ذاكرة الأطفال غريبة. أو قل إن ذاكرة الإنسان غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة، فهي تتمثل بعض هذه الحوادث واضحا جليا، كان لم يمض بينا وبينه من الوقت شيء، ثم يمحى منها بعضها الآخر كان لم يكن بينها وبينه عهد>> (حسين، 1992، صفحة

15)[22]، هكذا هي حياة الإنسان، وبالأخص حياة الطفولة الأولى، فإن الذاكرة هناك تستطيع استحضار حوادث بعيدة الأمد، كان الوقت الذي حدث فيه والآن، ليس بينهما زمن يذكر، فالماضي كله يدخل ضمن البيت، ويعاد على شكل أحلام والشمس في كبد السماء، ثم يسترجع وتنفتح أمام الإنسان دفعة واحدة <<... إن ماضينا كاملا ياتي ليسكن البيت الجديد ... إن حلم اليقظة يتعمق إلى حد أن منطقة من التاريخ البعيد جدا تنفتح أمام الحالم بالبيت منطقة تتجاوز أقدم ذكريات الإنسانية ...استرجاع لمحات من أحلام يقظة تضيئ ذلك الدمج بين القديم جدا وبين المستعاد من الذكريات. وهذه المنطقة التي تنفتح على تاريخ سحيق يرتبط فيها الخيال بالذاكرة، كل منهما يعمق الآخر.>> (باشلار 1984، صفحة 37)[23]، ومن ثم فإن الفتى يتذكر علاقته بالبيت وكل ما يحويه من أثاث، وحتى الغرف المحيطة به، والمجاورة إليه، <<ثم يبلغ الصبي بيته، فيدخل إلى غرفة هي أشبه بالدهليز ، قد تجمعت فيها المرافق المادية للبيت ، وهي تنتهي به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة، قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت، وهي على ذلك غرفة النوم وغرفة الطعام وغرفة الحديث، وغرفة السمر، وغرفة القراءة والدرس فيها الكتب وفيها أدوات الشاي، وفيها بعض رقائق الطعام...>> (حسين، 1992 صفحة 80)[24]، يتذكر الصبي هذا البيت على ضيقه، وعلى شبهه بالدهليز، وإن هذه الغرفة على صغر حجمها، فقد تجمعت فيها كل الأشياء التي يحتاج إليها، وكانت كما هي غرفة حَوَتْ في طياتها ما يمكن أن تحويه جميع الغرف، فكانت معدة للأكل والشرب، وكانت قاعة لاجتماع الأصحاب حين حديثهم، وحتى حين سمرهم، وبعد التفرق تصبح غرفة للقراءة والدرس، والاطلاع على كل الكتب التي كانت مجمعة أيضا هناك، وقد حوت أيضا الأدوات التي يتم بها إعداد الشاي، من موقد و أباريق وأواني يبرد فيها الشاي ويشرب، حتى أنها كانت مجمع بقايا الطعام الذي تَخَلَّفَ فلم يُؤكَلْ، هكذا هو بيت الصبي الذي لم ينس شيئا منه، وبقي راسخا في مخيلته، لم تستطع السنوات الطويلة، والأسفار الكثيرة محوه، إن هذا الحلم الذي يمارس على البطل في يقظته، هو حلم جميل، يتدفق أثناء فترات الصمت، ولكن <<حين نواجه فترات الصمت هذه فإن صاحب منهج المسح – التحليلي – سوف يبدأ في إلقاء الأسئلة: هل كانت

الحجرة كبيرة ؟ هل كانت العلية مكتظة بالأشياء؟ هل كانت الأركان دافئة؟ كيف كانت تضاء؟ وكيف حقق الإنسان الصمت في هذه الجزاء؟ وكيف كان يتذوق الصمت الخاص جدا لمختلف أماكن العزلة التي يمارس فيها حلم اليقظة وحيدا>> (باشلار، 1984، صفحة 39)[25]، وبالتالي فإن البطل يعي جيدا ما تعنيه الغرفة بالنسبة إليه، لذلك أخذ يتذكرها شبرا بشبر، وركنا بركن، ويعدد ما فيها من أشياء، وما كانت تصلح له هذه الغرفة وأغراضها، إن كل ذلك أصبح صورا عابرة تتمتزج بخيالات البطل حين يقف والصمت جنبا إلى جنب، فيسترسل كل ذلك لحظة بلحظة، ثم يذكر مجلسه من بين الأشياء كلها، ويتذكر مكان نومه، وكيف كان عليه؟ ثم يشرع في استذكار طريقة نومه في هذا البيت، <<وكان مجلس الصبي من هذه الغرفة معروفا محدودا كمجلسه من كل غرفة سكنها واختلف إليها. كان مجلسه عن شماله إذا دخل الغرفة، يمضي خطوة أو خطوتين فيجد حصيرا قد بسط على الأرض القي عليه بساط قديم ولكنه قيم، هنالك يجلس أثناء النهار، وهنالك ينام أثناء الليل تلقى له وسادة يضع عليها رأسه ولحاف يلتف فيه>> (حسين، 1992 صفحة 80)[26].

هكذا هي أحلام يقظة البطل، يحي بها نهاره، وقد يُنِيمُ بها ليله الحزين، وما يفعل ذلك إلا لمحاولة كتابة الزمن وما وقع فيه، وكتابة علاقته بالمكان المتواجد فيه والذي أحبه فتشابهت الغرف كلها بالنسبة إليه، ولا يتم ذلك إلا بفعل عامل الذاكرة الساكنة فيه، والتي تسجل له تلك الاستمرارية في حياته كلها لأن <<المكان هنا هو كل شيء، حيث يعجز الزمن عن تسريع الذاكرة. الذاكرة – أية أداة غريبة هي – لا تسجل استمرارية واقعية، بالمعنى البيرجسوني، إننا عاجزون عن معايشة الاستمرارية التي تحطمت، نستطع أن نفكر فيها فقط بمستوى تجريدي خال من الكثافة. إن أجود عينات الاستمرارية المتحجرة الناتجة عن البقاء الطويل في المكان توجد عبر المكان: مقصورات اللاوعي، الذكريات الساكنة، وكلما كان ارتباطها بالمكان أكثر تأكيدا كلما أصبحت أوضح، إن فعل الذاكرة في الزمن هو فعل كتاب السيرة ...>> (باشلار 1984، صفحة 39)[27]، وبالتالي نجد البطل، وفي اشتهاد منه، يريد استدراجنا بفعل الذاكرة إلى خلق نوع من الاستمرارية بينه وبين نفسه، وبيننا وبين السرد الذي يرويه

لأن الذكريات التي عاشها ساكنة في لا وعيه، يستخرجها كلما تشابهت المواقف وكلما حدثت عوارض تذكره بمواقف سبقت، وعايشها قديما، لذلك فنحن نعرف علاقته بالبيت معرفة تامة، ونستطيع أن نكون صورا عما عايشه وعاناه فالبيت هو الجسد والروح، وهو عالم الإنسان الأول، به نكتشف ذواتنا حين يحاصرنا المجتمع، وحين يتنكر الأهل والأصحاب لنا و لذواتنا، وهنا يمكننا أن نطلق تسمية الفضاء الذاكراتي إنه الفضاء المتواجد فيه، وهو الفضاء المحبوب الذي بجعل كل الغرف متشابهة ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا بفعل عامل الذاكرة الساكنة فيه، والتي تسجل له تلك الاستمرارية في حياته كلها، لأن الكاتب خلق جوا بيننا وبين السرد الذي يرويه ونحن حين ذاك نستطيع تكوين صورة واضحة عما عايشه، لكن بالنسبة للبطل يكون تذكر كل اللحظات التي عاشها، وهو يقارن بينها وبين حلم اليقظة الذي يعيشه الآن، فيرى اختلافات كثيرة بين المكانين، وإن كانت متشابهة، غير أن الذاكرة تركزها وتبعثها ومن ثم يصبح <<استرجاع لحظات المكان المحصور، البسيط المغلق، وتجارب المكان المنعش للقلب، المساحة التي لا تحاول التمدد، ولكن أشد ما ترغب فيه هو أن تمتلك. وقد تكون حجرة السطح قد بدت لنا في الماضي أصغر مما يجب، باردة في الشتاء وحارة في الصيف، ولكننا عندما نستعيدها من خلال أحلام اليقظة يصعب علينا أن نعرف من خلال أي نوع من التوفيقية أصبحت حجرة السطح كبيرة وصغيرة، دافئة وباردة في نفس الوقت>> (باشلار، 1984، صفحة 40)[28]، ومن ثم تتشابه المواقف على الحالم، ويفقد الإحساس القوي الذي جمعه قديما بالبيت الأول، فلا يستطيع إدراك ما كان عليه حقيقة، وينسى ما كانت عليه الحجرة، أكانت صغيرة أم كان حجمها أكبر مما يتخيل، هل استطاعت حمل كل الأغراض، أم عجزت؟ هل كانت وظيفتها النوم فقط؟ أم هناك وظائف أخرى لها؟ كيف كان حالها في الشتاء ثم الصيف؟ إنها عوارض يصعب على الحالم استيعابها.

-4الهجرة **والحنين إلى المكان الأليف:** إن الهجرة والترحال من أهم العوامل التي تساعد الإنسان على التذكر، وهما أيضا عاملان أساسيان في توليد الحنين، وإنه كلما ابتعد الإنسان عن بيت الطفولة وانتقل إلى بيت جديد، فإن ذلك سيؤدي حتما إلى البعد عن موطن الدفء والحميمية وكلما فارق الإنسان بيته الأول الذي تربطه

علاقة قوية، كلما ازداد التذكر وأحلام اليقظة، وأدى ذلك إلى الإحساس الكبير بالشوق إليه ، ودافع ذلك كله تقطع أوصال المحبة به، مما يولد الإحساس بالغربة، لأن النفس دائما تواقة إلى الفضاء الأول الذي ولدت فيه، وهذا طبع متأصل في بني آدم ، لأن << من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تواقة >> (الجاحظ، 1982)[29] وكل فراق وبعد عن مسقط الرأس يولد إحساسا بالحزن والأسى ، خاصة إذا كانت الذكريات القديمة جميلة ورائعة، ثم يتحول في طرفة عين إلى بيت غريب موحش فتنقاد الذاكرة مباشرة إلى الوراء، لتستحضر أيام السعادة والهناء في البيت الذي ولد فيه كل واحد منا، وفتح عينيه عليه أيام الطفولة، <<فالبيت الذي ولدنا فيه بيت مأهول، وقيم الألفة موزعة فيه وليس من السهل إقامة توازن بينهما، إذ هي تخضع للجدل، فكم من حكايات للأطفال – إن صدقت – تروى عن الطفل الذي ليس له حجرة خاصة به، ولهذا ذهب غاضبا و جلس في أحد الأركان>> (باشلار، 1984 صفحة 43)[30]، ومن ثم فهذه الألفة الموزعة سرعان ما تندثر بمجرد الرحيل، لذلك نجد الفرد، وبخاصة المبدع يستحضر ذكريات الماضي التي تربطه بالبيت، على شكل صور ذهنية صافية، تجسد علاقته بمكان ولادته، الذي سكن عمقه البعيد فنجده يأنس إليها وإلى ماضيه <<ويرعى الفضاء الذاكراتي أكثر التجارب الشعورية، ويحفظ لها ذكراها عبر أمكنته المتعددة، التي تثري تجارب الشاعر وتحرك شاعريته، وتمده بمادة غزيرة طيعة لأدواته الفنية التي يسخرها لعمله الخالد، كما يراعي الحيز الذاكراتي – كجزء من الفضاء –تجارب الشاعر الذاتية، لاحتماله التأويل على قراءات عديدة>> (زعيتر، 201، صفحة 273)[31]، وهذا لا يخص المبدع الشاعر فقط، بل نجده عند الروائي الفذ، الذي يحول اللغة من العادية الجارية، إلى لغة شاعرية خلاقة تتوازى فيها المشاعر والأحاسيس عند كليهما، ونجد طه حسين يصف البيت الجديد بالبيت الغريب، والطريق المؤدي إليه كذلك غريب، <<فهو يسكن بيتا غريبا يسلك إليه طريقا غريبة أيضا، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر، فيدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق في الليل، وتفتح في وسطه فجوة ضيقة بعد أن تُصلى العشاء>> (حسين، 1992، صفحة 78)[32]، فالغربة مبعثها فراق بيت الطفولة والتوجه إلى بيت جديد ، لذلك نجد البطل يحس بالغربة من

أول وهلة صادف فيها هذا البيت، بل والطريق المؤدي إليه يختلف عن الطريق القديم الذي ألفه، وهذا راجع إلى التعلق الشديد بالموطن الأول، وعدم القدرة على تحمل فراقه، لذلك نجده يحس بالأسى في داخله، ويشعر باللوعة على فراق المكان الأليف.

تظل الذكريات الأليفة لاصقة بعقل الفتى، فهو يتذكر الموطن الأول ويَحنُّ إليه كلما اصطدم بمواقف مشابهة لما كانت عليه في السابق، وعند تشابه المواقف تعود الذاكرة بالفتى إلى سنين الطفولة الأولى، وتكون المقارنة بعد ذلك، وليس البيت وحده مصدر التذكر، أنما الأشياء التي تقرب إليه، أو توصل إليه، كالطريق مثلا، أو السلالم التي يمتطيها للوصول إليه، ونجد البطل في هذه الرواية يصور لنا الطريق الجديد الذي لم يألفه بعد، ويصور لنا السلم المؤدي إلى بيته الجديد، <<...حتى إذا بلغ من هذه الطريق مكانا بعيدا بعينه سمع أحاديث تأتيه من باب قد فتح عن شماله فعرف أنه سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد في السلم الذي سينتهي به إلى حيث يقيم ...>> (حسين، 1992، صفحة 79)[33]، فهو يعرف هذه الطريق ومقدارها، ويعرف هذا السلم الذي سيصعد به إلى البيت، لأنه شبيه بالسلم الذي كان يصعد به العلية، ويصعد به مع المؤذن إلى حيث يقام الأذان، لذلك فقد كانت الصورة مشابهة لأيام الماضي، أيام الطفولة الحلوة، حيث لا حزن يكدر صفو الحياة، وبغض <<النظر عن ذكرياتنا فالبيت الذي وِلِدْنَا فيه محفور بشكل مادي، في داخلنا. إنه يصبح مجموعة من العادات العضوية. بعد مرور عشرين عاما، ورغم السلالم الكثيرة الأخرى التي سرنا فوقها .فإننا نستعيد استجاباتنا " للسلم الأول، فلن نتعثر بتلك الدرجة العالية بعض الشيء ...>> (باشلار، 1984، صفحة 43)[34] إن كل الذكريات محفورة حقا في ذاكرتنا، وفي ذاكرة البطل، لأنه يحاول في كل مرة ربط الماضي بالحاضر، عن طريق الذاكرة، حتى ولو مر على الماضي أكثر من عشرين عاما، ونخربت الذاكرة بفعل المجتمع وعاداته، وتغيرت التقاليد بعد الرحيل غير أن البطل يحاول أن يعطي صورة جديدة لهذا السلم المخالف للأول، فهو متوسط متراوح بين السعة والضيق، ولكن دَرجه كان من الحجر الذي تراكمت عليه الأتربة فاستخفى الحجر، وهذا المقطع يبين ذلك: <<وكان هذا السلم متوسطا ليس بشديد السعة ولا بشديد الضيق ، قد اتخذ درجه من الحجر، ولكن كثر التصعد فيه والهبوط

منه ولم يتعهد بالغسل ولا بالتنظيف، فتراكم عليه تراب كثيف، ثم انعقد ولزم بعضه بعضا حتى استخفى الحجر استخفاءً خيل إلى المصعد فيه والهابط منه أنه إنما يتخذ سلما من الطين>> (حسين، 1992، صفحة 79)[35]، إن السلم هنا يذكر صاحبنا بالصعود إلى حيث محل الإقامة، لذلك كان أشد التصاقا بالذاكرة، على عكس الهبوط والنزول إلى الأسفل، فإنه مختلف اختلافا كبيرا، وهذا راجع لما لهما من مفارقات، فالأول يوصله بعد الصعود إلى المكان حيث الدفء و الحميمية، والإنزواء خلف الجدران، والاحتماء من كل عوارض الدهر، أما الثاني فيوصله إلى الأسفل إلى القبو، أو الغرف السفلى التي توضع فيها الأشياء الزائدة عادة، فالسلالم تتكون من أدراج كثيرة ، لذلك فإن فالصاعد أو النازل منها يعددها ثم ينسى عددها، ولا تبقى من الذكريات إلا ما أوصلنا إلى بيت الدفء والراحة ، لذلك << فالسلالم: من واحد إلى ثلاثة أو أربعة ، كلها مختلفة، إننا دائما نهبط السلم الذي يؤدي إلى القبو، وهذا الهبوط هو ما نتذكره. وما يميز أحلامنا، أما السلم المؤدي إلى حجرة النوم فإننا نصعد ونهبط عليه. إنه أكثر استعمالا. ونحن نألفه >> (باشلار، 1984، صفحة 52)[36]، ومن منا لا يحب حجرة النوم، ومن منا لا يحب الخلود إلى النوم، إنه الراحة التامة بعد التعب الخالص، لذلك تجدنا نتحمل أتعاب الصعود بفرح شديد، ثم ترتبط ذكرياتنا به أشد الارتباط ، لأن كثرة الاستعمال هي التي تبعث الذاكرة، وتخزنها حتى لا نكاد ننسى شيئا منها، ولكن الصبي في الأيام الأولى كان شديد الحرص على القيام في كل صعود، بإحصاء الدرج، لأنه يمضي به إلى حيث الراحة، والخلود إلى النوم <<ومع أن الصبي كان كلفا بإحصاء الدرج كلما صعد في سلم أو هبط منه فقد أقام ما شاء الله له أن يقيم في ذلك المكان، وصعد في ذلك السلم وهبط منه ما شاء الله له أن يصعد أو يهبط ، ولم يخطر على باله قط أن يحصي درج هذا السلم ، و إنما علم بعد أن اتخذه مرتين أو مرات، أنه صعد منه درجات فلا بد من أن ينحرف قليلا نحو الشمال ليمضي في الصعود تاركا عن يمينه فجوة لم يَلِجْهَا قط، ولكنه كان يعلم أنها كانت تؤدي إلى الطبقة الأولى من ذلك البناء الذي أقام فيه أعواما طوالا>> (حسين، 1992، صفحة 79)[37]، هكذا هي ذكريات البطل في رحلة بحثه عن الهوية، وهذه هي علاقته بالبيت ، السلالم المؤدية إليه ، فهو في حالة صعود دائم

إليه، يحاول في كل مرة إحصاء عدد الأدراج المكونة للسلم، إلا أنه لم يستطع عدها رغم طول السنين، ومهما يكن من أمر، يبقى البيت الأول موطن الدفء، هو حامل الذكريات جميعا، ومرسلها، وبالتالي فبعد السفر الطويل، وتوفر أسباب الراحة للفتى إلا إننا نجده في سيرته يشتاق إلى بيت الطفولة ، مهد الدفء والاحتماء ، فكل الطرق التي سلكها، والسلالم التي صعدها، والبيوت التي سكنها، كلها لم تثن عليه ما أثنى عليه بيته الأول، لأن <<البيوت المتعاقبة التي سكنها جعلت إيماءاتنا عادية ولكننا نندهش حين نعود إلى البيت القديم بعد تجوال سنين عديدة ، أن نجد أدق الإيماءات و أقدمها تعود للحياة، دون أدنى تغير. وباختصار. فإن البيت الذي ولدنا فيه قد حفر في داخلنا المجموعة الهرمية لكل وظائف السكنى. إننا رسم بياني لوظائف سكنى ذلك البيت المحدد، وكل البيوت الأخرى هي تنويعات على نفس اللحن>> (باشلار، 1984، صفحة 44)[38]، فالسكن الأول هو مهد السكنات الأخرى، وهو حاميها حين نحتمي به، فالبطل في رواية الأيام، نجده يستنجد ببيته الأول، رغم إن بيته لم يكن كالبيوت الأخرى، لأنها كانت أحسن منه، غير أن حميميته دفعته لتذكره بعد سنوات الغياب، فهاهو يحن إليه بشوق كبير، ويود العودة إليه عن طريق الذاكرة، أليس هو المكان الاستذكاري بصدق؟ ألم يجد فيه الدفء والحنان مذ فتح عينيه؟ أليس هو من وفر له الحماية، وأسباب الراحة؟ وها هو يبعث زفرات وآهات كثيرة حينما يتذكره بعد السفر، <<... ويردد في نفسه تلك الحسرات اللاذعة التي كان يجدها، وحسرات أخرى لم تكن أقل منها لذعا وإيلاما، حسرات الحنين إلى منزله ذلك، في قريته تلك من قرى الريف ...>> (حسين، 1992 صفحة 99)[39]، إن هذه الحسرات تأتيه على شكل ذكريات جميلة، ذكريات يعود بها إلى الماضي لعله يخفف من حدة الفراق، وهنا تنفتح أبواب الخيال على مصراعيها وتنطلق أحلام اليقظة مسترسلة حوادث الماضي ومواطن الدفء والحميمية.

خاتمة: وصفوة القول؛ فإننا نصل من خلال هذه الدراسة مجموعة من النتائج أهمها:

- أن الفضاءات الانعزالية هي أماكن الوحدة التي يعيشها الفرد، وقد كان للفضاء الانعزالي شعريته الخاصة بعد فقدان البطل لبصره؛

- لقد كان تأثير الفضاء الانعزالي شديد الوقع على البطل، وهو ما كسا المكان بشعرية خاصة ومختلفة؛

- لقد أثرت طبيعة الفضاء سلبا على البطل في بداية حياته، ثم انقلبت الأمور إلى الإيجابية في النهاية؛

- لقد تحول البيت وهو الفضاء الأليف إلى مكان موحش مظلم في حياة البطل؛

- أثر الهجرة كان كبيرا على طه حسين، مما دفعه إلى إعمال فكر الذاكرة والاشتياق إلى المكان الأليف. وقد كانت لهذه الدراسة إضافات منها، أنها بحثت في موضوع جديد قليل الدراسة، وهو يتعلق بشكل كبير بفئة المكفوفين الذين يعيشون حياة صمت وسط مجتمع انشغل بالماديات والشهوات عن الأمور الأخلاقية ومساندة الآخرين، ومشاركتهم همومهم وأحزانهم وحتى أفراحهم.

قائمة المصادر والمراجع

1- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحنين إلى الأوطان، دار الرائد العربي بيروت، ط1، 1982، ص 08.

2- حمادة تركي زعيتر: جماليات المكان في الشعر العباسي، دار الرضوان عمان، ط 1، 2013، ص 83.

3- طه حسين: الأيام، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مؤسسة الأهرام القاهرة ط1992،1. ص 12.

4- غاستون باشلار: جماليات المكان، تر، غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984. ص 35.

5- مصطفى شميعة: القراءة التأويلية للنص الشعري القديم، بين أفق التعارض وأفق الاندماج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ط1، 2013 عدد ص 322، ص 09.

الهوامش:

[1]- حمادة تركي زعيتر: جماليات المكان في الشعر العباسي، دار الرضوان، عمان ط 1، 2013، ص 83.

[2]- غاستون باشلار: جماليات المكان، تر، غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 1984. ص 35.

[3]- غاستون باشلار: جماليات المكان، ص 35.

[4]- طه حسين: الأيام، مركز الأهرام للترجمة والنش، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ط1992،1. ص 12.

[5]- غاستون باشلار: جماليات المكان، ص 35.

[6]- مصطفى شميعة: القراءة التأويلية للنص الشعري القديم، بين أفق التعارض وأفق الاندماج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ط1، 2013، عدد ص 322 ص 09.

[7]- غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 36.

[8]- طه حسين : الأيام ، ص 98.

[9]- غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 36.

[10]- باشلار، 1984، صفحة 36.

[11]- باشلار، 1984، صفحة 36

[12]- حسين، 1992، صفحة 99.

[13]- باشلار، 1984، صفحة 37

[14]- باشلار،1984، صفحة 38.

[15]- حسين، 1992، صفحة 259.

[16]- باشلار، 1984، صفحة 37.

[17]- حسين، 1992، صفحة 321.

[18]- باشلار، 1984، صفحة 40.

[19]- زعيتر، 2013، صفحة 269.

[20]- باشلار، 1984، صفحة 37.

[21]- زعيتر، 2013، صفحة 269.

[22]- حسين، 1992، صفحة 15.

[23]- باشلار، 1984، صفحة 37.

[24]- حسين، 1992، صفحة 80.

[25]- باشلار، 1984، صفحة 39.

[26]- حسين، 1992، صفحة 80.

[27]- باشلار، 1984، صفحة 39.

[28]- باشلار، 1984، صفحة 40.

[29]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحنين إلى الأوطان، دار الرائد العربي بيروت، ط1، 1982، ص 08.

[30]- باشلار، 1984، صفحة 43.

[31]- زعيتر، 201، صفحة 273.

[32]- حسين، 1992، صفحة 78.

[33]- حسين، 1992، صفحة 79.

[34]- باشلار، 1984، صفحة 43.

[35]- حسين، 1992، صفحة 79.

[36]- باشلار، 1984، صفحة 52.

[37]- حسين، 1992، صفحة 79.

[38]- باشلار، 1984، صفحة 44.

[39]- حسين، 1992، صفحة 99.